

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 9 (2010) : 98 - 120
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

مؤسسة الزوايا بإقليم توات خلال القرنين 12- 13 هـ /18- 19 م بين الإشعاع العلمي والانتشار الصوفي

صالح بوسليم
قسم التاريخ المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

مقدمة:

ما يزال البحث في دور الزوايا بالجزائر لم يتبلور بالشكل الذي يقف فيه المتطلع على كل ما يود معرفته، وذلك في غياب معطيات كثيرة يعود بعضها إلى السوسيولوجي، وبعضها إلى التاريخي، وبعضها إلى السياسي، وبعضها إلى الاهتمام بالتوثيق والمراجعة والبحث الذي تعرقله أسباب لا يتأتى تذليلهما إلا للقليل، وبعضها إلى المصالح وا ساسيات.

وإذا كان هذا حال زوايا لا يتجاوز عمرها الثلاثة قرون إلى الأربعة فماذا يقال عن زوايا توات التي واكبت الإسلام منذ أن أضاء هذه الأرض، بل إن أصحابها ومؤسسيها هم المسؤولون عنه بعد إسلامهم كما تفيد أكثر الروايات؟.ماذا يستطيع الباحث أن يقدم عن زوايا منتشرة عبر مناطق الإقليم الثلاث(قورارة– توات الوسطى – تيديكلت)؛إضافة إلى هذا الكم الهائل من التراكم التاريخي الواضح وغير الواضح، المستمد من آثار ووقائع ومواقف جلية وجليلة، أو من تخمينات وشهادات شفوية لا تخلو من الغلو والانبهار المصحوبين بالإفراط والتهويل.

وللإشارة فان جل هذه الزوايا قد تحولت خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشرللهجرة (18و19م) إلى مؤسسات علمية أو صوفية حقيقية تمكنت بفضل ما توفر لها من إمكانيات مادية ومالها من أتباع بين مختلف القبائل أن تقوم بدور في تأطير المجتمع،والتخفيف من وطأة الأزمات الاجتماعية إبان فترة الجفاف أو الفراغ السلطوي.

-الزاوية: بين المفهومية والتعريف

إن كلمة "الزاوية" مستمدة من الفعل "انزوى"، والذي يعني اتخاذ المرء مكاناً معزولا ليتجنّب مخالطة الناس، أو ليحدّ من هذا الاختلاط حتى لا يشغل باله بشيء غير الشيء الذي يفكر فيه، ولا يلتهي بأمر غير الأمر الذي يسعى إليه كالصلاة والتسبيح والدعاء، وتلاوة القرءان، وقراءة الأوراد وغيرها من الأمور الدينية1.

والزاوية لغة تعني الركن أو المكان المنعزل، وتسمية الزاوية يدل ابتداءا على أنها بقعة من الأرض جاءت من انزوائها بعيداً عن بقية المناطق المتقاربة من بعضها[2]. وهي في الأصل ركن البناء، وكانت تطلق بادي الأمر على صومعة الراهب المسيحي، ثم أطلقت على المسجد الصغير أو على المصلى، ولا تزال اللفظة هذه تحتفظ بنفس المعنى عند المسلمين، ذلك أنهم يفرقون بينها وبين المسجد الذي يفوقها شأنا، على أن مصطلح الزاوية[3] ظلّ تفظا به في شمال إفريقيا بمعنى أكثر شمولاً من ذلك، إذ يطلق على بناء أو طائفة من الأبنية ذات طابع ديني، وهي تشبه الدير أو المدرسة، فنجد في الزاوية جميع الأشياء التالية، أو الكثير منها، غرفه قُصِرت على تلاوة القرآن، مكتبا أو مدرسة لتحفيظ القرآن، ثم غرفا مخصصة لضيوف الزاوية وللحجاج والمسافرين والطلبة، ويلحق بالزاوية عادة مقابر أولئك الذين أوصوا في حياتهم بأن يدفنوا فيها[4].

ويرى "جورج مارسيه" أن تطور الزاوية ارتبط بتطور ا ركة الصوفية في بداية القرن الثالث عشر الميلادي (القرن السابع الهجري)، ويذكر أيضاً أن الزاوية في المغرب الإسلامي، ما هي إلا أربطة فقدت وظيفتها ا ربية، وتمسّكت بالجانب الديني التعبدي[5].

ويذكر الدكتور يحي بوعزيز أن مؤسسوا هذه الزوايا هم رجال دين متصوفون، متزهدون، بدأت حركتهم تظهر في المشرق الإسلامي منذ القرن الثاني الهجري على يد رابعة العدوية، ثم أبي يزيد طيفور البسطامي الفارسي، وأبي القاسم الجنيد العراقي في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري)، وا لاج في القرن الرابع الهجري، وأبي حامد الغزالي في القرن الخامس الهجري، و ي الدين بن العربي الأندلسي في القرن السابع الهجري[6]. وهكذا انتقل الزهد والتصوف إلى بلاد المغرب وانتشر بها أواخر العصر الوسيط ومطلع العصر ا لديث حيث كثرت الزوايا وانتشرت بشكل واسع ومكثف في القرن السابع عشر وما بعده[7].

ورغم اختلاف الفرق الصوفية والأولياء الذين بيت هذه الزوايا بأ ائهم، إلاّ أن الدور الذي كانت تقوم به يكاد يكون متشابهاً من حيث أن كلاً منها كانت تستقبل المتعبدين والذاكرين، وقارئي القرآن، وطالبي العلم، وإن كلاً منها كانت مكاناً لإيواء الفقراء وعابري السبيل واستقبال الضيوف، وفي هذا الصدد يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن: "وكانت الزوايا المغربية (أي المغاربية)، مدرسة دينية ودوراً لضيافة الأغراب"[8].

ولم تكن الزاوية حبيسة المنطقة الجغرافية، أو الدور الذي أنشئت من أجله، بل أرست المتطلبات التي فرضتها عليها الأحداث الداخلية والخارجية، وما استمرارها ووجودها إلى اليوم إلا دليل على مسايرتها كلما حت الظروف بذلك، وسواء كانت الزاوية وليدة الطرق الصوفية[9] كما هو الشائع، والتي تسعى إلى مقاصد معيّنة، فإنّ المتفق عليه هو أن الزوايا يرجع لها الفضل في انتشار الإسلام خاصة في أقاليم إفريقيا الغربية التي تعتبر بوابة لها، والتي كان مرتكزها الأساسي الطرق الصوفية[10]. وكان بعض مشايخ وفقهاء توات يبنون الزوايا ويتخذُونها أماكن للخلوة والتعبُّد بجانب تخصيص أجزاء منها للتدريس[11].

– انتشار الزوايا: هناك العديد من الأدلة العقلية والأسباب الجوهرية التي كانت تحتم وجود الزوايا خارج نطاق المسجد وانتشارها في مناطق متفرقة، ويمكن أن نورد ثلاثة منها:

أولا: كثرة الأدوار المنوطة بالمسجد، فقد كان للمسجد أدوار كثيرة مثل الدور الديني والدور العلمي، والدور الثقافي، والدور السياسي والعسكري، هذا بالإضافة إلى وجود أعداد هائلة من المسلمين الذين كانوا يرغبون في حياة الانزواء والاختلاء في زواياه، فكل هذه الأدوار والمسؤوليات وغيرها من الأسباب التي ذكرناها فيما سبق جعلت من الضروري أن يستقل أصحاب الزوايا الموجودين داخل المساجد بزواياهم خارجه، وفي أماكن مختلفة لتتاح لهم فرصة أكبر في ممارسة شعائرهم الدينية، وفي نشر رسائلهم العلمية، وفي قراءة أورادهم، وفي إنشاء أذكارهم[12].

ثانيا: كثرة الوافدين على المساجد: إن أبناء المسلمين يترددون على المساجد أفراداً وجماعات، فمنهم من يأتي إليها لأداء فرائض الصلاة، ومنهم من يأتي ليحفظ القرآن ويتعلم العلم، ومنهم من يأتي إليها باعتباره عابر سبيل، وخلال هذه اللقاءات والاجتماعات لا بد وأن يصحب ذلك العديد من المناقشات وا اورات حول مختلف الموضوعات، ممّا يؤدي إلى

إحداث بعض الأصوات وعدم الهدوء والسكينة، الأمر الذي لا يعطي الفرصة لبعض المتصوفين والمتعبدين والعاكفين والمتهجدين والذاكرين وغيرهم بأن يختلوا إلى أنفسهم ويمارسوا نشاطاتهم الروحية والعقلية بالصور المطلوبة، كما لو كانوا في أماكن أكثر انعزالاً واستقلالاً. وانطلاقا من ذلك أصبح ا رص على إقامة هذه الزوايا في أماكن معزولة مطلباً لا مناص منه، وبذلك كثرت الزوايا في الصحاري، وفي القرى والأرياف ،وفي مفترق الطرق الصحراوية، وفي المناطق شبه المهجورة.

ثالثا:– كثرة المتنقلين بين المناطق المختلفة: إن وجود الأعداد الكبيرة من أبناء المسلمين، والذين يعيشون في الصحاري وفي القرى النائية، وينتقلون بين مختلف البلدان الإسلامية، إما لطلب العلم، أو لأداء فريضة ا ج، أو لممارسة الأعمال التجارية، أو لأي سبب آخر، كل هذه الأسباب حتمت على المسلمين أن يقيموا مراكز علمية وخدمية في هذه المناطق من أجل تقديم الخدمات إلى كل المسافرين عبر هذه المناطق الوعرة سواء كانت هذه الخدمات علمية، أو دينية أو إيوائية، أو ما إليها. فالمسلمون أثناء تنقلهم في هذه المناطق يحتاجون إلى من يأويهم ويمد لهم يد العون فيما يحتاجونه من زاد ومأوى، ومن يعلّمهم بعض الذي يجهلونه من أمور دينهم ودنياهم أثناء حلهم وترحالهم عبر هذه المناطق.

وهكذا يلتقي رجال القوافل القادمون من الشمال مع العائدين من الجنوب ،حيث يجلسون إلى مشايخ الزوايا، وينغمسون في جوهم الديني، ويتبادلون معهم الأحاديث المختلفة من البلاد التي جاءوا منها أو مروا بها، وبذلك تظل هذه الزوايا على صلة بالعالم الخارجي[13].

ومن أقدم زوايا توات نذكر منها عى سبيل الذكر لا ا صر:

- زاوية الشيخ مُحَّد بن عبد الكريم المغيلي[14]:

أسس زاويته الشهيرة بقصر بوعلي سنة 885هـ/1480م، فتوافد عليه الطلبة من جميع الأقاليم المجاورة والقصية بقصد طلب العلم والمعرفة، وتميزت زاويته بالجمع ما بين المهمة التعليمية والمهمة ا ربية[15]، حيث كانت قاعدة لانطلاق جيشه في حربه على يهود توات، وقد وصلت شهرة الزاوية إلى أقاليم وجهات عدّة، كبلاد السودان الغربي والأوسط، وحرص شيخ الزاوية رحمه الله على إقامة نظام إسلامي لبناء مجتمع متوحد تحكمه مبادئ شريعة الإسلام[16].

– زوايا أخرى بالاقليم: شهد إقليم توات انتشار العديد من الزوايا على امتداد مناطقه الثلاثة، ومن أبرز هذه الزوايا نذكر منها:

– زاوية بادريان: التي أسّسها الشيخ محمَّد بن عبد الله الصوفي بمنطقة قورارة في القرن ا ادي عشر للهجرة (1004هـ/1595م).

– زاوية سيدي باسيدي بقصر فاتيس لمؤسسها الشيخ سيدي عومر بن أحمد بن الصالح في القرن ا ادي عشر للهجرة (1008هـ/1599م).

– زاوية مهدية: أسّسها الشيخ سيدي أعمر المهداوي في القرن الثاني عشر للهجرة (1119هـ/1707م).

– زاوية بودة: لصاحبها الشيخ الجعفري الملقب (صاحب سبع حجات) بقصر بودة السفلانية في القرن الثاني عشر للهجرة (1161هـ/1748م).

– زاوية زاجلو: التي أسّسها سيدي علي بن حنيني، وتعود إلى القرن الثاني عشر للهجرة.

– زاوية سيدي عبد القادر، نسبة لمؤسسها الشيخ سيدي عبد القادر بن عومر، وتعود إلى القرن الثاني عشر الهجري (1113هـ/1701م).

– زاوية سيدي زايد: أسّسها سيدي زايد، بقصر تبرغمين بمنطقة قورارة، وتعود إلى القرن ا ادي عشر للهجرة.

– زاوية تنيلان: التي أسسها الشيخ سيدي أحمد بن يوسف الوانقالي التنيلاني (ت1078هـ/1667م)، وذلك لما أتم بناء المسجد بقصر تنيلان في منتصف شهر شعبان من عام 1058هـ/1648م، و ّاها (رزق الله الواسع لعباده النافع)، وقد اشتهرت بنواحي توات وأصبحت قبلة لطلبة العلم وعابري السبيل[17].

- زاوية الشرفاء : التي أسّسها السيد مولاي علي[18] بن مولاي مّد ،بقصر تيط بمنطقة تيديكلت ، وقد غادر مؤسس هذه الزاوية قصر الهبلة[19] بغرض أن يقيم في بلدة اينغر، لكن ابنه مولاي علي استقر به المقام في بداية الأمر ببلدة أولف، ثم قدم بعدها باتجاه قصر تيط ،حيث أسس زاويته في عام 1194هـ/ 1780م، وبعدما أقيمت الزاوية الواقعة غرب

القصر سُلّمت إلى الطريقة القادرية، وقد توقفت عن مهمة التعليم منذ زمن بعيد، وأغلب البيوت انهارت وأصبحت أطلالاً، وغالبية سكانها نزحوا إلى قصر تيط[20].

3-أصناف الزوايا التواتية:

انطلاقا من الوظائف الأساسية لهذه الزوايا أمكننا التمييز بين صنفين من الزوايا بتوات وهما:

أ–الزوايا العلمية: وهي الزوايا التي أنشأها بعض العلماء لتقوم بدور علمي، وكانت هذه الزوايا من بناء مجموعة من العلماء سواء من مشايخ توات أومن العلماء الذين هاجروا من المغرب الأوسط(الجزائر)، أوالمغرب الأقصى باتجاه توات في مدد زمنية مختلفة، ويأتي في طليعتهم الشيخ مولاي سليمان بن علي ،والشيخ مُحَّد بن عبد الكريم المغيلي،ومن أبرز هذه الزوايا العلمية المنتشرة عبر القصور نذكر:

- زاوية سيد البكري بتمنطيط.
- زاوية مولاي هيبة بأولف الشرفاء (تمقطن).
- زاوية سيد علي بن حنيني بزاجلو.
- زاوية كنتة.
- زاوية سيدي حيدة بقصر بودة السفلانية.

ولو أخذنا على سبيل المثال زاوية الشيخ أبي نعامة الملقب بشيخ الركب النبوي، فنجد بحق أنّها كانت في القرن الثاني عشر الهجري (18م) مركزا علميا ثقافيا، ذلك لما قامت به من دور فكري وثقافي تجاوز حدود الإقليم إلى منطقة الأهقار وإلى إقليم فزّان[21]جنوب ليبيا وكانت إحدى فروع الزوايا الكنتية بالصحراء الكبرى ، لذلك شكلت حلقة وصل بين الماضي وا ماضر، تحيا في أركانها لغة القرآن، ويتصل سند هذا الكتاب الكريم فيها بين أجيال المعلمين والمتعلمين رواية وضبطا و اعا وحفظا، وتتردد بين جنباتها مرويات السنة ومباحثها سندا ومتنا من أجل ذلك لازمها المجاورون وشدّ إليها الأباعد الرحال، وكانت طة التوقف للرحالة وا حجاج يمرون بها[22]، ويقيمون هنا ضيوفا يحصّلون فيها الدروس أويقومون لطلابها بالتدريس ويتحاورون مع أساتذها.

.إن صور ا ياة العلمية والثقافية في تاريخ هذا الصرح العلمي قد تبدلت وإن تقلبات

الزمن ومؤثرات العصر قد غيّرت من معالم هذه الزاوية ونالت من رسالتها وأصالتها... مراحل تاريخية متعددة مختلفة وأجيال متعاقبة شهدت أنشطة علمية وفكرية وثقافية، ومما يؤسف له أن شيئا من ذلك لم يوثق – فيما أعلم– إلاّ شذرات متناثرة هنا وهناك لا تتناسب ومكانة هذه الزاوية وعظم رسالتها التي اصطدمت بها، وأهمية الدور الذي قامت به في ظروف اجتماعية وثقافية ضاغطة في أغلب الأحيان.

وكان من أهداف هذه الزاوية العمل من أجل تحفيظ القرآن الكريم لأبناء المسلمين وإقامة الدروس في تفسير القرآن وشرح السنة مع الاهتمام بدراسة بعض فروع العربية وأصول التشريع الإسلامي.

ومن الملفت للنظر أن هذا التقليد في تسلسل نظام التعليم بقي سائداً إلى وقت قريب، فالطالب يلزمه أن يُجيد حفظ القرآن، وقد يكتفي بما حصله إذا اقتضت منه ظروف أسرته المعيشية ذلك، أوقد يواصل تحصيله الدروس العلمية إن وجد إلى ذلك سبيلا.

ومن المتعارف عليه بين الناس في هذه المنطقة أن الطالب في هذه الزاوية إما طالب قرآن أوطالب سنة، وطالب القرآن هو الذي لم يحفظه بعد، أما طالب السنة فهو الذي حفظ القرآن ثم واصل التعليم. ودلالة هذا التقسيم العرفي أن كل ما يحصّله الطالب من معرفة في جميع فروع العلم بالمعنى العام لا يخرج عن هذين الأصلين القرآن والسنة، وقد بقي هذا الوضع التعليمي في هذه الزاوية على هذه الهيئة من التكامل في التعليم مما خلق ظروفا مواتية للتحصيل في كل المستويات، فمن قصرت به خطاه اكتفى بحفظ كتاب الله، ومن لديه استعداد للمزيد استقر به المقام وواصل تعليمه في بيئة استوطنها وطاب له البقاء، إذ تعرّف على الأقران فيها، وهو كل يوم يتعرف على المزيد، ويؤلف مع هؤلاء وأولئك علاقات الود والألفة ويكتشف طرق المعاملة ومقتضيات المعاشرة. وقد استقطب هذا الجو القرءآني العلمي الاجتماعي الخاص أعداداً كبيرة من طلاب العلم فوفدوا على هذه الزاوية وانقطعوا للتحصيل والدراسة بها. وقد ساعدهم على ذلك بساطة ا ياة ويُسر المعيشة، ومن المرجح أن هذه الزاوية منذ تأسيسها لم تخرج عن هذا النمط، وإذا تقل أو زاد عدد الطلاب، أو المدرسين بين فترة وأخرى فمرجع ذلك إلى ظروف اجتماعية، أو معيشية ميسرة أو ضاغطة، ونشير هنا إلى أن موارد الوقف الخيري على هذه الزاوية كانت في كل الظروف والأوقات عاملا مساعدا على استقرار نظام التعليم في هذه الزاوية واستمراره واستقلاله،فالطلاب لهم

من ريع الوقف ما يكفي مؤونتهم، والأساتذة المعتمدون لهم مرتبات جارية تتناسب مع حصيلة مواسم الزرع والتمر، وضيوف الزاوية من ا حجاج والعلماء لهم من مدخرات الوقف نصيب مفروض.ولعل هذا الوضع المالي المستقل قد مكّن لهذه الزاوية، وساعدها على القيام بأداء دورها بحرية واستقلالية دون أن تتأثر بقوى لية متصارعة أو توجه بأوامر من سلطات أجنبية حاكمة.

ولا يختلف الوضع في زاوية كنتة بتوات ،ولعل من أبرز أعلامها الشيخ الفقيه سيدي عمر بن مصطفى الرقادي[23]، وقد كان بارعا في فنون كثيرة مع إتقان تام للعربية والفقه وا ساب والقراءات، وكانت له همّة عالية في التدريس حيث كان يخص جل وقته للطلبة، ولا يكاد ينتهي من تقرير مسألة في فن معين حتى ينتقل لغيرها دون ملل ولا تكرار.[24]

وتعد الزاوية البكرية مركز إشعاع فكري وثقافي في منطقة توات، وقد أسست لتحفيظ أبناء المسلمين القرءآن وتعليمهم العلم [25].وبها حجر كثيرة لسكن الطلبة الغرباء ، ولها أوقاف كثيرة رصد ريعها على الصرف منه على المدرسين والطلبة ا تاجين للإعانة، وعلى ما تحتاج إليه من إصلاح. وقد اشتهرت هذه الزاوية شهرة لا نظير لها ونسبت إلى مؤسسها الشيخ سيد البكري ،وإن كان الفضل في بزوغ شمسها يعود إلى الشيخ مُحَّد بن البكري بن عبد الكريم(ت1188هـ)، هذا الأخير الذي أقام هذه الزاوية بمباركة من شيخه سيد علي بن أحنيني[26]، وقد نظم هذا الأخير قصيدة في مدح الزاوية البكرية جاء في مطلعها:

ا مد لله العظيم الأحد ... الواجد ا ي العزيز الصمد

ثمّ الصلاة والسّلام أبدا ... على النّبي العربي أحمد

وءاله وصحبه الأخيار ... من المهاجرين والأنصار

إلى أن يقول:

يا ربّنا أنزل بهذه الزّاوية ... سترا ولطفا ودوام العافية

زاوية بكرية قديمة ... علوية شريفة كريمة

بحرمة ا لك العظيم الأعظم ... وبرسولك النّبي الأكرم[27]

وبمنطقة قورارة اشتهرت الزاوية البدريانية بدورها ا ضاري ويرجع لها الفضل في تعليم

أبناء تلك الناحية، وتخرّج من هذه الزاوية علماء أفذاذ يشار إليهم بالبنان،ويرجع الفضل في علو كعب الزاوية وديمومتها للوصية الجامعة والمانعة لتنظيم وتسيير الزاوية[28].

وبقصر زاجلو المرابطين توجد زاوية الشيخ سيدي علي بن حنيني، وكان هذا الأخير شيخا ورعًا صا ا غزير العلم، ذاع صيته واشتهر شهرة لا نظير لها، منكبا على العلم مخلصاً لطلابه لا يهمه شيء سوى نشر الثقافة بين طلابه وا يطين به[29].

وقد تتلمذ عليه الكثير من أبناء توات، واستمرت هذه الزاوية في البذل والعطاء على مر العصور تؤدي رسالتها العلمية الرائدة، فذاع صيتها داخل توات، وفي بلاد السودان الغربي، وذلك عن طريق رحلات طلبتها ومشايخها،أوعن طريق القوافل التي كانت تمر بمناطق الاقليم باتجاه بيت الله ا رام لأداء فريضة ا ج.

أما زاوية مولاي هيبة التي أقامها الشيخ أبو الأنوار بن عبد الكريم التنلاني في القرن الثاني عشر للهجرة (18م) فقد طارت شهرتها، كزاوية علمية في جنوب الإقليم، وتحولت إلى قبلة لطلاب العلم من بلاد السودان الغربي ومن مختلف جهات الإقليم، وقد توفي هذا الشيخ الجليل سنة 1168هـ ودفن بالمسجد حيث لا يزال ضريحه قائماً إلى اليوم، وبوفاة الشيخ أخذ العلم ينقطع شيئاً فشيئاً من الزاوية.

وهكذا يلاحظ أن الدور العلمي لهذه الزوايا كان ينتهي بانقراض أهل العلم مثل زاوية الشيخ سيدي عبد الله السبع وزاوية سيدي أعمر، أو بوفاة الشيخ المتصدر للتدريس كما هو ا ال بالنسبة لزاوية مولاي هيبة السالفة الذكر.

وبالرغم من تراجع الدور العلمي لهذه الزوايا فإنها ظلّت قائمة في شكلها الاجتماعي كقصر لا يختلف في تنظيماته الداخلية وعلائقه بمن حوله عن باقي قصور توات، كما يتحول سكان الزاوية إلى قبيلة – قصر – لا يختلف في شكلها ومضمونها عن باقي قبائل القصور بالمنطقة. وما تزال أطلال المدارس العلمية بهذه الزوايا إلى اليوم تحكي ما كان لها من إشعاع علمي في الماضي القريب.

ب– الزوايا الصوفية: وهي عبارة عن معاقل لأتباع الطرق الصوفية، يتخذ أتباعها ورداً خاصا من الأذكار يتلونها عقب الصلوات، ويتصدون لتعليم القرآن أساسا للأطفال وتلاوته، كما يقومون بتعليم بعض العلوم الدينية واللغوية بأنفسهم إن كانوا مثقفين[30]،

وبواسطة حفاظ القرآن الكريم يحرصون على تعليمه لعوام الناس في حلقة ا زب الراتب.ويلتف الطلبة والمريدون حول الشيخ، ينهلون منه شتى فنون المعرفة، ويلتقون عنه طريقته في التصوف، واختلف نظام هذه الزوايا من زاوية إلى أخرى حسب اتجاه كل شيخ، وأسلوبه في تربية المريدين، ودرجة إلمامه بالعلوم النقلية والعقلية. ولعل من أبرز الزوايا الصوفية بتوات نذكر:

– زاوية الشيخ مولاي عبد الله الرقاني[31]: نسبة لمؤسسها الشيخ مولاي عبد الله بن مولاي علي الشريف،ونسبته إلى رقان لأنها منشأه الأول ومسقط رأسه، وقد بنى قصره للسكن والضيافة، وأسّس زاويته الموجودة حاليا، وتشير بعض الكتابات ا لمية أنه كان من المخلصين العاملين، وقد شهدت له أعلام عصره بالولاية العظمى والمقام الأ ى[32]، كالعلامة محمد بن أبّ المزمّري والشيخ الإمام الصوفي الرقادي الكنتي.

ومما يؤثر عنه كثرة قراءة الأوراد واشتغال الوقت بالطاعات، إذ كان في حلقاته صاحب هيبة ومهابة وديانة وصيانة وأمانة ورعاية حتى انتقل إلى رحمة الله عام 1148هـ/1737م[33]. وقد ذكر صاحب مخطوط (نسيم النفحات): "أن للزاوية أوقاف موقوفة على المسجد والفقراء وأبناء السبيل وعلى الطلبة الذين يقرؤون ويختمون في كل يوم ختمة (سلكة) من القرآن العظيم على تلك الأضرحة، وهذه الزاوية لايسكنها إلا أبناء الرقاني مع مواليهم وأولاد الشيخ مولاي عبد المالك"[34].

وإلى جانب قيام الزاوية بتعليم القرآن وتحفيظه فقد كانت دار للإقامة والضيافة، إذ يأتي إليها سكان الصحراء والمسافرون لمختلف الأغراض، ولا يزال ضريح مولاي عبد الله الرقاني مزاراً للعديد من القاصدين إليه من مختلف الجهات، وتقام له سنوياً زيارة يختم فيها القرآن الكريم ويتم فيها تذاكر مآثر هذا الولي الصالح[35]. وفي الجيل اللاحق له كان يلقب (بالقطب) وهو لقب صوفي لا يناله إلاّ من تدرج في مدارج الطريقة وشهد له الناس بالصلاح.

وقد ذكر صاحب مخطوط (الدرة الفاخرة) بعض أعيان الصلحاء والمشاهير الفضلاء الزهاد بتوات، وذكر منهم السيد مولاي عبد الله الرقاني الذي قال عنه: "كان زاهدا عابدا كثير الخير، وكان للناس فيه اعتقاد كبير، وكان يضرب بعبادته المثل، وكان ذا منزلة عظيمة في نفوس الناس"[36] إلى أن قال: "واستمرت الولاية في ولده سيدنا ومولانا عبد المالك وكان كبير

القدر وافر ا ـرمة وله كرامات وعجائب"[37]

ويذكر البرتلي بخصوص تصوف مولاي عبد المالك أنّه: "أخذ الأوراد والطريقة عن والده الشيخ مولاي عبد الله الرقاني، عن الشيخ سيدي مُحَّد بن عبد الرحمان بن أبي زيان، عن سيدي مبارك العنبري الغزواني، عن الشيخ سيدي مُحَّد بن ناصر الدرعي، عن سيدي عبد الله بن حسين الرقي، عن سيدي أحمد بن يوسف الملياني، عن الشيخ العارف بالله تعالى الجامع بين علم الشريعة وا ـقيقة سيدي أحمد زروق الفاسي، عن سيدي أحمد بن عقبة ا ـضرمي، عن سيدي أبي ا ـسن علي بن أبي وفا، عن القرافي، عن سيدي أبي العباس أحمد بن عطاء الله الإسكندري، وفي بعض النسخ عند ذكر السيّد أحمد بن عقبة ا ـضرمي، عن سيدي يحي القادري، عن سيدي علي بن وفا، عن والده سيدي مُحَّد بن وفا، عن سيدي داوود بن الباخلي، عن الشيخ تاج الدّين أبي الفضل أحمد بن عطاء الله، عن سيدي أبي العباس المرسي، عن القطب الكبير أبي ا ـسن الشاذلي، عن سيدي مولاي عبد السلام بن مشيش ا ـسيني الإدريسي، عن سيدي عبد الرحمان المدني، سيدي أبي أحمد، عن سيدي أبي مدين شعيب، عن سيدي علي حزرهم، عن سيدب أبي يعزى، عن سيدي أبي بكر بن العربي، عن سيدي أبي حامد الغزالي، عن أبي مُحَّد الجوني، عن الشيخ أبي طالب المكي، عن الشيخ الجرير، عن إمام الطائفة سيدي أبي القاسم الجنيد..."[38]

ومن صلحاء توات المتصوفين السيد مُحَّد بن مولاي هيبة الله، والسيّد مولاي المهدي بن مولاي عبد السلام[39] صاحب المآثر العديدة. وقد أقبل بعض التواتيون على بناء الزوايا الصوفية والتهافت على المشيخة، وكان يشرف على الزوايا الفرعية داخل توات نخبة من فقهاء توات، ولم يمض وقت طويل حتى اكتسب التواتيون خبرة في هذا المجال، فتراهم قد أسّسوا زوايا أم مستقلة تعمل في نفس ا ـقل الديني[40]. ويبقى الإشكال القائم هو: ما هي مميزات الزوايا الصوفية؟ وما هي العوامل التي ساعدت على استمرارها؟

إن أهم ما تتميز به الزاوية الصوفية عن الزاوية العلمية، هي روح ا ـيوية الذي يتسم به نشاط الزاوية الصوفية، الأمر الذي ساعدها على الاستمرار، وقابلية التطوّر والتكيّف مع كل المستجدات بعد وفاة الشيخ المؤسس، وقدرتها على التعامل مع ـيطها القريب، وأصل هذه ا ـيوية في مسيرة الزوايا الصوفية يرجع إلى العوامل الآتية:

1- اختيار مكان التأسيس: لم يكن اختيار مكان بناء الزاوية الصوفية اعتباطا ولا عشوائيا بل كان الشيخ المؤسس يتحرى الدّقة في اختيار المكان[41] وهكذا نلاحظ أن عددا من الزوايا الصوفية ، قد أسسها أصحابها في ملتقى طرق القوافل، وعلى طول ا ،اور الطرقية التي تربط واحات توات بالمناطق المجاورة لها،فزاوية الرقاني مثلاكانت مأوى للعديد من سكان الصحراء والمسافرين، وكان شيوخ الزاوية يوفرون كل لوازم الراحة والضيافة والأمن للقوافل التجارية.

2- شخصية الشيخ الصوفي: تلعب شخصية الشيخ المؤسس للزاوية الصوفية دورا أساسيا في استمرارية الزاوية بوضع أسس تطورها مع مرور الزمن، فقد كان الشيخ يختار من بين أتباعه من يأنس فيه القدرة على التكلف، والكفاءة في التدبير وا ،رص على تطوير إمكانيات الزاوية المادية وضمان استمرار دورها التصوفي للعثور على تلميذ موهوب يكون بإمكانه استخلاف الشيخ في علمه وتدريسه وهذا هو حال زاوية كنتة.

3- مرونة الأذكار: من العوامل التي ساهمت أيضا في استمرار الزاوية الصوفية بتوات مرونة الذكر، فقد كان شيوخ الطرق الصوفية بهذه المنطقة يراعون العوامل النفسية والقدرات العقلية لأتباعهم ومريديهم، فكانوا يعينون لكل فئة من الناس ما يصلح لها من الأذكار، فالطالب الذي يحفظ القرآن الكريم له نصيب من الذكر أقل من حصة العامي، وحصة المرأة من الذكر أقل من الرجل وأدنى مراتب الورد عدداً معينا من الاستغفار والهيللة وأعلاها أن لا يفتر لسان المريد عن الذكر في كل وقت وحين[42]. وتتفق الزوايا الصوفية بتوات على التدرج في الأذكار، كما يتضح ذلك من أوراد زاوية كنته القادرية بالإضافة إلى زاوية قصر الجديد.

4- فتح باب الرجاء أمام الأتباع: كان غالبية شيوخ الطرق الصوفية ومقدمي الزوايا، يتمتعون بذكاء فيه حدة، وحدس قوي يهتكون به سدافة النفوس، وفطنة يكشفون بها ما خفي من الأمور، وهدوء في الطبع لا تحركه الهزاهز، وقدرة عالية على استنكاه مكنونات النفوس البشرية، هذه الصفات كانت تِؤهل شيوخ الطرق دون غيرهم للتحكم بهمة عالية في إدارة إرادة المريدين[43]،الذين يختلفون أصلا من حيث الانتماء القبلي، ومن حيث تراتب الشرائح الاجتماعية، والعمل بدأب وحدب على تشذيب غلواء الروح البدوية في أعماق نفوسهم، والانتقال بهم من سلوك تغلب عليه الأنانية والانفرادية إلى سلوك يرتكز على التسامح وروح الجماعة. وفي هذا الإطار كان شيوخ الطرق الصوفية بمناطق توات يفتحون باب الرجاء والخلاص أمام مريدهم وذلك من خلال ماكانوا يبثونه في الأتباع من أقوال تفتح

باب الرجاء واسعا على مصراعيه أمام كل الذين يشعرون أنهم أسرفوا على أنفسهم فيما سلف من العمر،وأن طريق الخلاص هو الالتحاق بهذه الطريقة أو تلك.

وهكذا نلاحظ أنه في الوقت الذي كانت فيه الزوايا العلمية تتقوقع على نفسها بموت العالم المؤسس وانقراض أهل العلم بها، كانت الزوايا الصوفية تضع لنفسها إطارا صوفيا يرتكز على بعض الأدبيات والأذكار الخاصة يتجدد مع كل شيخ يتولى تدبير شؤون الزاوية.

بفضل هذه العوامل التي حاولنا إبرازها، تمكنت الزوايا الصوفية بواحات توات من خلق مجال حيوي يحمي وجودها ويضمن لها الاستمرار، وهذا ما ح لعدد من شيوخ الزوايا الصوفية من التفكير في توسيع مجال نفوذها والإكثار من الأتباع والمريدين.

أما عن الزوايا الكنتية فقد تجاوزت الإطار ا لمي للإقليم وامتدت إلى مجالات جغرافية مختلفة من الصحراء الكبرى، ويبيّن ذلك نـ سيدي مُحَّد بن المختار الكنتي (ت1242هـ):"إن كنتة قبيلة من قبائل الزوايا، المتقادمة التي لا نسبة لها في ا رابة والبغي وليسوا من عرف ذلك واتسم به متقدم، دخلوا في غمار الزوايا الذين هم على أنحاء منهم الذين لا يحملون السلاح ولا يتخذون الأتباع ولا يواسون اللصوص وهم مع ذلك متسيرون بسيرة الزوايا متدينون، يتعلمون العلم ويعلمونه وفيهم العلماء والأولياء، ثم من تعدى عليهم مدفوع المواساة من لـ و ارب، دفعوه عن أنفسهم وأموالهم وحرمهم بما بأيديهم، جالبا ذلك عليهم ما هو جالبه.. فإن وقع بين القبيلتين منهم نزاع وتشاجر في ثائرة ردوها إلى الله ورسوله.."[44]

ومن خلال هذه الوثيقة نستشف بعض الأدوار الطلائعية التي قامت بها الزوايا الكنتية داخل توات وخارجها، علاوة على إسهاماتها الفكرية والعلمية التي أثرت بها خزائن المنطقة، كما عملت على ترسيخ الاسلام والثقافة العربية الاسلامية في افريقيا جنوب الصحراء.

2-دور الزوايا ووظائفها بتوات:

في الأدبيات المتوفرة لا يوجد تصنيف ولا تعريف سوسيولوجي للزاوية وربما وجب رفض هذه التسمية التي ترتكز على وضع مظاهر جد متنوعة تحت نفس المفهوم ودراسة كل منها على أساس ظاهرة مستقلة.[45]

إن النقطة الأساسية التي يجب الإشارة إليها دائما هي أن الزاوية متعددة الوظائف،

وا ماصل أن الزاوية في معناها الأكثر بساطة والأكثر فهما تظهر أساسا مثل هيئة اجتماعية، وهو الشكل الذي ظل مختفيا وراء المضمون السوسيولوجي الأكثر غنى. وقد تصبح الزاوية–كشكل مؤسساتي–عندما تقاس بحجم الخدمات التي تقدمها في يطها وبتنوع الأدوار الموكلة إليها.[46]

وقد ذكر صاحب مخطوط (نسيم النفحات) زوايا توات واصفا بعض عوائدها في قوله: "ومن عادتهم إكرام الضيف، والمسافر لا يحتاج إلى حمل الزاد معه، لأن في كل قصر من قصورها عادات، فإذا كان القصر فيه زاوية لها أحباس على إطعام الطعام للأضياف، فإن المسافر يقصد دار الزاوية فيجد فيها كل ما يحتاج إليه ومن معه، فيجد حتى علف الدواب.. وما أكثر هذه الزوايا في ذلك القطر العزيز المبارك"[47]. ومن هذه المهام أو الخدمات النبيلة التي كانت تقوم بها الزاوية منذ النشأة ولازالت تؤدي بعضها نذكر منها على سبيل الذكر لا ا صر:[48]

- تحفيظ القرآن،
- تعليم اللغة العربية قراءة وكتابة ونشرها مع تعاليم الإسلام،
- جمع الزكاة والصدقات والنذور والكفارات وصرفها على أهلها من الفقراء والمساكين وإيواء السابلة،
- حل المشاكل ا ياتية والفصل في القضايا الدينية،
- خلق نوع من الاستقرار والتوازن بين القبائل المتنافسة،
- اربة اليهود وطردهم من توات وغيرها من المناطق المجاورة،
- التكفل باليتامى والتكفل بشؤونهم،
- الإشراف على قافلة ا ج 49 وتنظيمها،
- القيام بصيانة وتجديد شبكة الفقاقير وغرس النخيل،
- بناء دور الضيافة،
- بناء ا صون والقصور المتمثلة في القصبة ماية السكان من الاعتداءات والغارات الخارجية،
- اربة الدواب ذات السموم كالأفاعي والعقارب،
- نشر الإسلام في كثير من المناطق المجاورة والقصية للإقليم،

– حفر الآبار في الطريق التي تربط بين البلدان الصحراوية،
– نسخ الكتب واقتنائها ووضع خزائن للمخطوطات،
– التصدي للحملات التبشيرية التنصيرية،...الخ

أ– دورها الديني والعلمي:

تعددت وظائف الزوايا التواتية وشابهت كثيرا مثيلاتها في كونها مركز إشعاع ديني بحيث كان الهدف الأساسي هو خدمة الدّين الإسلامي ونشره، وتخرّج منها نوابغ العلماء وكبارهم أمثال:

– الشيخ سيدي أمُحَمَّد بن أبي مُحَمَّد التواتي التمنطيطي(ت1008هـ)،
– الشيخ مُحَمَّد بن أبّ المزمري (ت1160هـ)،
– الشيخ سيدي عمر بن عبد القادر التنلاني (ت 1152هـ)،
– الشيخ مُحَمَّد بن عبد الرحمان البلبالي (ت1244هـ)،
– الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني (ت1189 هـ)، وغيرهم كثيرون...،

ويتجلى الدور الديني للزاوية في كونها مكانا تقام بها الصلوات، ويتلى فيها القرآن والأذكار. والدراسة داخل الزاوية غير ددة، وتتوقف المدّة على استيعاب الطالب المواد المقررة للحفظ والتعلم.[50]

وتحولت الزوايا إلى مراكز إشعاع ونشاط فكري عظيمين، بل أحيانا الملجأ الوحيد للتعليم وتبادل الأفكار والنقاش. ولم تغفل زوايا توات الدور الاجتماعي والثقافي، إذ كانت تنظم السفر إلى ا ح عبر شبكة أمنية ولوجيستيكية هامة في زمن انتشرت فيه الفتن وا روب، وكانت تشرف على توفير الإيواء لعدد كبير من أبناء السبيل ومن طلبة العلم ،وقد تجلّى الدور العلمي في كونها مركز للدراسة والمعرفة في مجال تواجدها.

ب– دورها الاجتماعي:

تعددت مساهمة الزوايا اجتماعيا، ومن الخدمات المتعددة أنها كانت مأوى اجتماعي للسابلة والمنقطعين وا تاجين، توفر لهم الطعام والنزل. وقد ذكر صاحب مخطوط (نسيم النفحات) زوايا توات في معرض حديثه عن عادات سكان الاقليم بقوله: "ومن عادتهم إكرام الضيف، والمسافر لا يحتاج إلى حمل الزاد معه، لأن في كل قصر من قصورها عادات،

فإذا كان القصر فيه زاوية لها أحباس على إطعام الطعام للأضياف، فإن المسافر يقصد دار الزاوية فيجد فيها كل ما يحتاج إليه ومن معه، فيجد حتى علف الدواب.. وما أكثر هذه الزوايا في ذلك القطر العزيز المبارك"[51].

وهي مركز استشفائي حيث توفر الراحة النفسية للمتعبين والمرضى، ولها دور قانوني يتمثل في قيام مشايخها بالفصل في المنازعات و كبح دور الخلافات، فكان يتم الانتقال من الزاوية بالتهليل إلى القصور المجاورة لإقامة الصلح[52].

– دور الوساطة: وهي خلاف دور التحكيم بين الجماعة نفسها، أو بين الجماعة والهيئة ا اكمة للإقليم.

– دور إيديولوجي:يربط القبيلة أو الجماعة بالأمة.

والزاوية هي مكان للاجتماع، ويتضح المظهر الاجتماعي بكل وضوح في البادية، فهي طة لإيواء التاجر أو المسافر العادي، وهي المكان الذي تقام فيه المواسم بانتظام.

وقد قامت الزوايا في أغلب الأحيان بتقديم خدمات اجتماعية عديدة منها:

– خدمات صحية كقتل وجمع ا شرات الضارة المتواجدة في القصور.

– اخت بعضها بركب ا جيج لوقوعها على الطريق مثل زاوية سيدي ا اج بلقاسم بتيميمون ،وزاوية سيدي عبد الله السبع، وزاوية سيدي بونعامة بأقبلي[53].

– ساهمت في تنظيم التعاون بين الأفراد في القصر أو القرية مثل التويزة التي يتعاون فيها جميع الناس.

– ساهمت بعض الزوايا الكبرى في إيجاد عمل مستقر لكثير من الأشخاص سواء داخل الزاوية أو في البساتين أو الأراضي التي تملكها خارج يط القصر.

– لقد كانت الزوايا منذ تأسيسها مركزا لوحدة القبيلة، وملجأ للفقراء والمساكين، و طة لعابري السبيل ،ومأوى اليتامى، كما أنها كانت قبلة للمتخاصمين من أجل فض نزاعاتهم.

– هي صمام أمان في مجال العقيدة، وقد ملئت الفراغات الإيديولوجية، وبالتالي

وقفت أمام الاندثار ا ضاري للمجتمع.كما عملت على تطوير العمران، وازدهار الدراسات اللّغوية و الفنون الأدبية، كالشعر الملحون ،كما ساهمت – في الوقت ذاته– في ا فاظ على التوازن الروحي و الذاكرة التراثية للأمة.

خاتمة:

وانطلاقا مما سبق يتبين لنا أن الزاوية هي مؤسسة دينية روحية اجتماعية إسلامية، وقد أصبحت مع مرور الزمان مركزاً للحياة الدينية والعلمية، حيث عمل أهلها على تربية وتعليم الجماهير،فأصبحت مراكز تستهوي قلوب الناس من مختلف الفئات والطبقات، يأتون إليها تقربا لله وطلبا للعلم.

لقد وازن التواتيون بين كل القيم والمثل الرائعة وبين ما تتطلبه ا ياة، ولهذا حرصت كل زاوية على تأسيس مدرستها العلمية والقرآنية، فإن أعجزها الظرف على الإنفاق بالنسبة للأولى، فإن الثانية كانت في ازدهار كبير، ومن ثمة نشطت حركة حفظ القرآن الكريم والتفقه في قراءاته ور ه.

كما يمكننا القول أن زوايا توات عرفت أوج عزها خلال القرن 12–13هـ/ 18و19م وقد ساهمت في إحياء ا ركة العلمية بتوات، كما أن إشعاعها الصوفي قد تجاوز صحراء المغرب الأوسط(الجزائر) وجوارها مثل إقليم فزان جنوب ليبيا ،وبلاد الجريد جنوب تونس ،وإقليم السودان الغربي والأوسط .

وبالجملة، فإن هذه الزوايا كانت بحق مراكز إشعاع علمي وثقافي وروحي تربوي، وكان دورها عظيما في ا افظة على مقومات أمتنا الإسلامية، ولا يمكن أن ننكر ما قامت به الزوايا الصوفية في توات من دور في الإصلاح ودعم ركات الجهاد والمقاومة ضدّ ا تل الأجنبي الغاشم[54].

الهوامش:

[1] ورد في الموسوعة الصوفية تعريف الزاوية أنها: ركن في المسجد، أو دار مستقلة تقام فيها الصلاة، وتعقد حلقات الدرس والذكر داخلها... وكانت الزاوية وما تزال من بيوت الصوفية، ولعلها الأرخ تكلفة والأكثر شيوعا عن الخانقاه والرباطات".

ينظر: د.عبد المنعم ا فني، الموسوعة الصوفية، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1424هـ/ 2003م، ص 779الجيلاني جبريل، مرجع سابق، ص 152. وقد قدّم الأستاذ مُحَّد حجي جملة من المفاهيم للزاوية، وذلك حسب الأدوار التي تضطلع بها في الزمان والمكان، يراجع: مُحَّد حجي، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1988م،ص23 وما يليها.

[2] جبريل الجيلاني: تعليم الكبار في ظل ا ضارة الإسلامية، منشورات جامعة الفاتح ليبيا 1998م، ص 152.

[3] تطرح الزوايا إشكالا في تعريفها، وهذا ما دفع الشيخ العلامة المرحوم الشيخ مُحَّد باي بلعالم إلى ـاولة فك الإشكال القائم في بعض الأبيات في معاني الزاوية حسب اختلاف المناطق والزمان يقول فيها:

أما الزوايا فهي ركن يبنى كدير أو صومعة في المبنى
وفي شمال القارة السمراء ينمى لما خ بالأولياء
وقيل اسم لبناء قد جمع مدرسة وغرفا لها تبع
فيجد الطالب فيها مثوى وهي للضيوف أيضا مأوى
فهي على الجملة دار الدين ومنزل للضيف دون مين
وهي في الشرق تسمى بالرباط وكل منشأ يُعد للنشاط
وعرفت في صدر ثامن القرون بأنها المسجد وا رز المصون
فيها المرافق لكل طالب وهي ا ماية لكل هارب
فهي دار الصلح والملاءمة وهي دار الخبر والمسالمة

ينظر: مُحَّد باي بلعالم، الرحلة العلية إلى منطقة توات، ج1،دار هومة، الجزائر ،2005م ، ص316.

[4] أنظر: دائرة المعارف الإسلامية، العدد التاسع من المجلد العاشر، ص ص 331–332.

[5] **George.Marçais : L'art Musulman, universitaire de France, Paris 1962, p129.**
Et L'architecture Musulmane d'occident, Paris 1954, p284.

[6] يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر،1999م، ص131.

[7] المرجع نفسه، ص131.

[8] حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج4، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1961م، ص923.

[9] الطرق الصوفية: الطريق في العربية معناه السبيل، وهي عبارة عن منهج أخلاقي يحدد عمليا ضروب السلوك الفردي، ثم أصبحت عبارة عن جملة مراسيم للتدبير الروحي المعمولة به من أجل المعاشرة في الجماعات الإخوانية، وبذلك تتمايز بينها بحسب غاياتها ومقاصدها،وقد تكون هناك الطريقة الواحدة، وإنما تختلف باختلاف الأمصار والعصور. وبالطريقة يتحقق للشيخ أن يصل بالمريدين إلى مطلوبات التصوف وهي في نهاية المطاف التحقق با ق سبحانه وتعالى.

ينظر: عبد المنعم ا فني، المرجع السابق، ص780.

[10] أنظر: يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين 20/19م، ط2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، ج1، الجزائر، 1998م ، ص 340–341.

[11] محمّد بن عبد الكريم البكراوي التمنطيطي، جوهرة المعاني في تعريف ما ثبت لدي من علماء الألف الثاني، مخطوط ، خزانة مدرسة سيدي أحمد ديدي – تمنطيط، أدرار، الجزائر، ص 30–31.

[12] يذكر الدكتور أبو القاسم سعد الله أن من بين الأدوار الإيجابية للزوايا الريفية حرصها على التعليم، فإلى جانب وظيفتا الدينية، كانت معهداً لتعليم الشباب وتنوير العامة وهو ما لاحظه الباحث عند الوقوف على بعض زوايا توات.

يراجع: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار الغرب الإسلامي ،بيروت 1998م، ص268 وما بعدها.

[13] رأفت الشيخ، تطور التعليم في ليبيا في العصور ا لديثة، دار التنمية للنشر والتوزيع، طرابلس 1972م، ص ص 94–95.

[14] هو عبد الله محمّد بن عبد الكريم بن محمّد المغيلي التلمساني، ولد بالقرب من تلمسان وعلى الأرجح بمواطن قبيلة مغيلة البربرية بالغرب الجزائري، نشأ بتلمسان، حيث تلقى تعليمة على يد شيوخها، ثم تحوّل إلى مدن أخرى بالمغرب الأوسط والأقصى لمتابعة دراسته، فأخذ عن الشيخ يحي بن يدير وعن الشيخ عبد الرحمان الثعالبي عالم الجزائر ووليها (ت 875هـ/1470م)، كما درس على الشيخ أبي العباس الوغليسي ببجاية، فاكتسب ثقافة دينية وأدبية أهلته لأن يعد من علماء عصره، فنال التقدير وحظي بالإحترام من العديد من العلماء العلماء. جاء بعد ذلك إلى توات وبالتحديد إلى حاضرة تمنطيط– عاصمة الاقليم حينها – عام 882هـ/1477م،وكان المغيلي من أكابر علماء القرن التاسع الهجري، لما اشتهر به من ثورة على تخلف وانحراف المنطقة التي هاجر إليها عقب ظروف خاصة بالمغرب الأوسط (الجزائر)، وقد اتخذ المغيلي منطقة توات وتمنطيط مستقراً ومجالاً للدعوة وتجديد روح الإسلام ثم اتصل بحكام الهوسة الوثنيين بالسودان الغربي، وكانت له ـاورات مع ا ـاج محمّد الاسيقا حاكم سنغاي، كما كان للمغيلي مواقفه ا ـادة من سيطرة اليهود على تجارة السودان الغربي، فحارب نفوذهم ودعاهم إلى الالتزام بالعهود والنصوص الإسلامية والقوانين الضابطة لعلاقات المسلمين بأهل الذمة في الدولة الإسلامية.

أنظر:د. ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1999م، ص266. أحمد بن يحي الونشريسي، كتاب الولايات ومناصب ا كومة الإسلامية والخطط الشرعية، نشر وتعليق الأستاذ: محمّد الأمين بلغيث، مؤسسة لافوميك للنشر والتوزيع، الجزائر 1985م، (مقدمة ا قق) ص ص 05–13.

محمّد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تحقيق وتقديم رابح بونار، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1968م، ص16 وما بعدها.

Bargés (L'abbé), complément de l'histoire des Beni zeiyan, rois de Tlemcen, Paris 1887 ,p389.

[15] أحمد ا مدي، محمّد بن عبد الكريم المغيلي رائد ا ركة الفكرية في منطقة توات: عصره وآثاره، رسالة ماجستير في التاريخ وا ضارة الإسلامية، قسم ا ضارة الإسلامية، كلية ا ضارة الإسلامية والعلوم الإنسانية، جامعة وهران، **1999/2000**م، ص **70**.

[16] المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[17] يذكر أن هذا الاسم المسماة به الآن إنما سرى لها من قصر قديم كان بقربها يسمى تنيلان وتفرّقت أهله، وقام الشيخ المذكور بحبس الفقاقير والبساتين على تلك الزاوية.

ينظر: سيدي عمر عبد العزيز، قطف الزهرات من أخبار علماء توات، دار هومة، الجزائر**2005**م، ص **80**.

وانظر أيضا: عبد الرحمان باعثمان، "أعلام العائلة التنيلانية ودورهم العلمي في اقليم توات خلال القرن**12**هـ/**18**م، دراسة من خلال الوثائق ا لية"، مداخلة ضمن فعاليات الملتقى الوطني الرابع الموسوم بـ" إسهامات علماء توات في ا ركة الفكرية والثقافية ابان العصر ا ديث **1500**–**2000**م، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أدرار، يومي: **19**–**20** أبريل**2010**م،ص ص**5**–**14**، عمل غير منشور.

[18] أولاد مولاي علي الشريف السجلماسي يتفرقون اليوم في قرى : أولف الوسط ، وتيط ، واينغر وفرع آخر من أولاده يوجد في توات الوسطى.

[19] الهبلة: هي إحدى قصور مقاطعة تسابيت.

[20] **Voinot (L), « Le Tidikelt, étude sur la géographie L'histoire et les Mœurs du Pays », Bulletin de la société de Géographie et D'archéologie de la Province D'Oran, T-29, 1909, p70.**

[21] قام إقليم فزان بدور مشهود في تاريخ الصحراء الكبرى سياسيا واقتصاديا وفكريا، وكان أحد المعابر الهامة التي ربطت بين أجزاء القارة الإفريقية، كما يخترقه أحد طريقي ا ج اللذين يمران بليبيا. ومنذ أوائل القرن السادس عشر تمكنت أسرة أولاد محمّد التي تنحدر من أصل مغربي من إقامة حكم وراثي بفزان عاصمته مرزق، وقد حاول الأتراك العثمانيون مدّ سيطرتهم إلى فزان، ولكن الأمور آلت إلى أولاد محمّد في ا كم، مع دفع الخراج وهو ما انتظم أيضا خلال العهد القرمانلي حتى سنة **1228**هـ.

ينظر: شارل فيرو، ا وليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة وتعليق: محمّد عبد الكريم الوافي، ط**2**، طرابلس، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، **1983**م، ص **152**.

[22] يذكر الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني (ت **1189**هـ) في رحلته لأداء فريضة ا ج أثناء مروره بالزاوية المذكورة فيقول: ".. ثم رحلنا لزاوية أبي نعامة نفعنا الله به وزرناه وهو الذي أحيا سنة ا ج من بلاد توات وبلاد التكرور فأقمنا بها أربعة أيام واستأجرنا هناك دليلا من الطوارق..". ينظر: محمّد باي بلعالم، الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني، دار هومة، الجزائر، **2005**م، ص**62**.

[23] محمّد باي بلعالم، الرحلة العلية، ج**1**، مرجع سابق، ص **400**.

[24] من بين الأعلام البارزين الذين درسوا على يده الشيخ محمّد بن أبّ المزمّري. ينظر: أحمد أبّا الصافي جعفري، محمّد بن أبّ المزمري **1160**هـ حياته وأثاره، ط**1**، دار الكتاب العربي، القبة الجزائر، **2004**م، ص **61**.

[25] للتعرف أكثر على أعلام العائلة البكرية ينظر: ا اج محمد العالم البكراوي،الدرة البهية في الشجرة البكرية،مخطوط ،خزانة مدرسة سيدي أحمد ديدي بتمنطيط، أدرار، الجزائر.أنظر أيضا: عبد ا ميد بكري، النبذة في تاريخ توات وأعلامها ،دار الهدى عين مليلة،الجزائر2005م، ص 56.

[26] عبد ا ميد بكري، المرجع نفسه، ص 143–144.

[27] تحتوي القصيدة على(26) بيتا ينظر: المرجع السابق، ص 145–146.

[28] الصديق حاج أحمد، التاريخ الثقافي لإقليم توات من ق 10هـ –14هـ ، مديرية الثقافة بأدرار 2003م، ص62.

[29] يذكر أن الشيخ سيد علي بن حنيني قد عاصر الشيخ سيدي البكري وكانت تربطه به علاقة قوية، وصداقة متينة وكان كثيراً ما يتردد على تمنطيط لزيارة صديقه.وهذا مما يؤكد لنا أن دور هاتين المؤسستين كان دوراً موضوعياً ناضجاً، الغرض منه التعليم والتعلم ليس غير، وأقول إن الشهرة العالمين الجليلين سيد البكري وسيد علي بن حنيني أن اشتهرا قصرا تمنطيط وزاجلو بنهضة علمية مرموقة، وبخاصة في العلوم اللغوية والدينية، وهذا متعارف عليه عندنا في توات حتى اليوم.

[30] يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص132.

[31] وهي تقع غرب قصر تاوريرت أحد قصور رقان – جنوب مدينة أدرار.

[32] غيتاوي مولاي التهامي، سلسلة النواة في إبراز شخصيات من علماء وصا ي إقليم توات،ج1، المطبعة ا لديثة للفنون المطبعية، الجزائر،2005م ،ص ص 30–31.

[33] المرجع نفسه، ص31.

[34] مولاي أحمد الطاهري الإدريسي، نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات، مخطوط ، الخزانة الطاهرية بسالي– رقان–أدرار، الجزائر، ص 150 .

[35] غيتاوي مولاي التهامي، المرجع السابق، ج1، ص ص 21–33.

[36] محمد بن عبد القادر بن عمر التنلاني، الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية، مخطوط، خزانة سيدي أحمد ديدي تمنطيط أدرار، الجزائر، ص20.

[37] المصدر نفسه، وقد ذكر صاحب كتاب(فتح الشكور) الكثير من كرامات الشيخ مولاي عبد المالك الرقاني أمسكنا عن ذكرها في هذا المقام مع أنّنا نؤمن ونصدّق بالكرامة للأولياء.

لمعرفة ترجمة حياة الشيخ المذكور ينظر: البرتلي أبي عبد الله الطالب،فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني و محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ص201–206.

[38] البرتلي، المصدر نفسه، ص 205.

وقد نظم الشيخ محمد إبن أبّ قصيدة في مدح مولاي عبد المالك الرقاني وتعداد أشياخه ينظر: أحمد أبّ الصافي جعفري، مرجع سابق، ص 83–85.

[39] الدرة الفاخرة، المصدر السابق، ص 20..

[40] كان عدد الزوايا الصوفية بالجزائر في غرة القرن الرابع عشر للهجرة يبلغ349زاوية كما كان عدد الإخوان يقرب من الثلاثمائة ألف، ينظر:

Coppolani(x),les confréries religieuses musulmanes, Alger,1897,p215.

[41] غالبا ما كان شيوخ الطرق الصوفية هم الذين يختارون المكان المعيّن لبناء الزوايا حيث يوجهون للمكان أحد أتباعهم المقربين.

[42] يذكر أحد الباحثين أن أغلب الكنتيين كانوا ينتمون إلى الطريقة القادرية، وتتم عملية الأذكار عند التقاء المريدين بطريقة هادئة، سواء أكانت فردية أم جماعية تحت إشراف مقدم الطريقة.

ينظر: د.مُحَّد حوتية، توات والأزواد، ج1، دار الكتاب العربي، الجزائر 2007م، ص180 وما بعدها.

[43] ينظر: الطاهر بو نابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 هجرية/12و13 ميلادية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2004م، ص288.

ويذكر أن الشيخ العالم صاحب الكرامات السيد عبد الله بن عامر بن عبد الخالق سبع الإدريسي بعد تأسيسه لدار العلم والزاوية قدم إليه الطلبة من كل حدب وصوب وقدم إليه المريدون يطلبون سر وطريقة سيدي أحمد الكرزازي الذي بدأ في تلقينها للعامة مع إجازتهم فيها. للمزيد ينظر: "سبع قطب ثقافي وديني" مجلة النخلة، العدد الثاني، مجمع القروط–أدرار ،2006م،ص20–21.

[44] سيدي مُحَّد ولد سيد المختار الكنتي، الرسالة الغلاوية، مخطوط ،خزانة شيخ الركب النبوي ،أقبلي–أدرار،الجزائر، ص 55.

Laroui (A),les Origines Sociales et culturelles du nationalisme marocain[46] , maspéro,Paris1977,PP139-146.

[46] Ibid.

[47] نسيم النفحات، مصدر سابق، ص34.

[48] ينظر: الرحلة العلية، ج1، ص316 وما يليها. سرير ميلود وآخرون،دور الزوايا الثقافي والعلمي في منطقة توات، ج1، جامعة أدرار، (دت)، ص39. (عمل غير منشور).

[49] لقد دفعت الضرورة إلى تنظيم ا ج في رحلات جماعية، طلبا للحماية وتيسيرا على الراغبين في أداء الفريضة، وعرف ذلك بركب ا اج الذي كانت تشرف عليه هيئة من شيخ الركب وأعوانه، وقد يكون للركب قاضيه وقائده وحرّاسه من الجند، والقائمون على خدمته خاصة إذا كان يصحبه بعض رجال الدولة من الأمراء والوزراء والعقائل، وقد يكلف رؤساء الركب بتبليغ الأمانات وتوزيع الصلات والهدايا خلال الطريق وفي ا رمين الشريفين، كما كان للركب رايته، وطلبه للنداء للقيام والقعود، وكان يسلك طريقا متبعا مألوف بفدافده وآباره ومراحله، وهو ما خلّده مرافقوه من الرحالة على مرّ القرون.وقد تعددت أركب ا جيج بتعدد البلاد، وكانت تلتقي خلال الطريق أو في المدن الكبرى التي خصصت بها مواضع لنزولهم. فالركب التواتي كان يمربغدامس ولما يصل إلى طرابلس ينزلون بساحة الأزرارية الواقعة بالمنشية شرقي القلعة. ليواصل طريقه فيما بعد إلى البقاع المقدسة مرورا بمصر.

حول ركب ا اج ينظر: محمد المنوني، ركب ا اج المغربي، معهد مولاي ا سن، تطوان **1953**م.د.عبد الهادي التازي، أمير مغربي في طرابلس أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، مطبعة فضالة (د.ت)، ص ص**108–115**.

50 فرج مود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، المؤسسة الوطنية للكتاب، والديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر، **1977**م، ص **86**.

51 مولاي أحمد الطاهري الإدريسي، نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات، مخطوط ، الخزانة الطاهرية بسالي– رقان–أدرار، ص**34**.

52 لعل من أبرز تلك الزوايا زاوية مولاي هيبة بتمقطن– أولف الشرفاء، وزاوية شيخ الركب النبوي بأقبلي، وزاوية سيدي بلقاسم بتيميمون.

53 الشيخ محمد باي بلعالم،مقابلة شفوية أجراها الباحث معه بمدينة أولف بتاريخ: **16**جوان **2006**م. وقد توفاه الأجل رحمه الله وأعلى مقامه في الصا ين أواخر شهر أبريل **2009**م.

54 يذكر أحد الباحثين أن ا اج المهدي باجودا يعتبر هو الممثل ا قيقي للحركة السنوسية بمقاطعة عين صالح وجوارها، الذي كان له في الأخير شرف الجهاد والاستشهاد في أولى معارك المقاومات الشعبية بمنطقة تيديكلت، والتي تعرف بمعركة "الفقيقرة" في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.

ينظر: د.محمد الأمين بلغيث، تاريخ الجزائر المعاصرة، دار ابن كثير لبنان، ودار البلاغ للنشر والتوزيع الجزائر **1422**ه/**2001**م، ص **71**.